ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Marwah Ali Hussein

Wasit University/ College of Education for Human Sciences

Email: marwahsouny@gmail.com

Keywords:

Shattered assumptions, Poetry, Pre-Islamic, Al-Muhalhil, Imru' al-Qais.

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 20. Jan.2026

Accepted 16. Feb.2026

Published 10. Nov.2026

Shattered assumptions in pre-Islamic poetry (Al-Muhalhil and Imru' al-Qais as examples)

A B S T R A C T

Human beings are by nature, fundamentally hypothetical entities, constructing their understanding of reality based on assumptions embedded in their lives, which they consider fixed and immutable. These assumptions serve as frameworks through which individuals interpret both themselves and the world around them. Yet, lived experience demonstrates that such assumptions are vulnerable to collapse when confronted with unforeseen events. Encountering such events can displace individuals from a state of stability to one of disruption, from certainty to doubt, and from comfort and tranquility to despair and fatigue. This disruption reverberates across both their external circumstances and their inner self, necessitating a reconfiguration of consciousness and a redefinition of meaning. Consequently, individuals are compelled to reassess their perspectives and reorganize their priorities in response to experiences that transform familiar realities into unexpected and novel conditions.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol65.Iss1.5021

هدم الافتراضات الأساسية في الشعر الجاهلي (المهلهل وأمرؤ القيس أنموذجًا)

م.د. مروة علي حسين

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:

عُرف الانسان أنه كائنٌ افتراضي بطبعه، يبني رؤيته للأشياء تبعًا لمسلمات موجودة في حياته يعدها ثابتة وغير قابلة للتغيير، فيُجسد عن طريقها تصورات حياتية لنفسه والعالم من حوله، الا أن التجربة الإنسانية المعاشة تكشف له أن هذه الافتراضات من الممكن أن تتهاوى أمام حدث طارئ لم يُؤخذ في الاعتبار من قبل فينتقل من حالة السكون إلى حالة الاضطراب ومن حالة اليقين إلى حالة الشك ومن حالة الرفاهية والدعة إلى حالة اليأس والتعب بمجرد اصطدامه بواقع

غير مخطط له، فيمتد ذلك التأثير إلى واقعه ونفسه؛ ليشكل لديه اعادة صياغة للوعي والمعنى، فيضطر إلى تغيير نظرته وإعادة ترتيب سلم أولوياته على وفق صدمة غيرت واقعه المألوف الى جديد غير متوقع.
الكلمات المفتاحية: هدم، افتراضات، أساسية، شعر، جاهلي، المهلهل، امرؤ القيس.

المقدمة:

في قلب التجربة الإنسانية تكمن افتراضات أساسية تشكّل رؤية الفرد للعالم ولذاته تمنحه شعورًا بالأمان والثبات والمعنى، ولقد أظهرت نظرية هدم الافتراضات الأساسية لدى جانوف–بولمان أن الصدمة أو الاختلال في هذه البنى المعرفية يؤدي إلى هدم هذه الافتراضات؛ فيتزعزع تصور الفرد للعالم، وتنهار لديه الثقة بسلامته وأصالته، وإذا نقلنا هذا الإطار النفسي إلى النصوص الجاهلية، نجد انعكاساته بوضوح في شعر المهلهل وامرئ القيس؛ إذ تتبدّى لحظات فقد اليقين والتوتر بين الفرد والعالم في مواجهة بيئة قاسية وواقع اجتماعي صارم، وعلى الرغم من هذا التحدّي يظل الشعر الجاهلي مهدًا لإعادة بناء الافتراضات الأساسية المتجلّية في قيم القبيلة والأخلاق والفروسية وتقدير الذات بما يعكس إيمان الشاعر بخيرية العالم وما فُطر عليه من الخير، ويؤكد قدرة الفن الشعري على تثبيت المعنى والأمان في عالم مضطرب.

التمهيد:

لقد جبل الانسان وغلفته فطرته باستحسان ما يؤول اليه مستقبله فغالبًا ما يتوقع كل ما هو محبب ومحبذ إلى نفسه، فضلًا عن تمسكه بما عليه الان إن كان خيرًا وكأن هذه الحالة الايجابية سرمدية يحفها الخلود من جميع جوانبها تبعًا لعواطف نابعة عن اعتقادات اصحابها، إذ إن الشخصية تتكون من "مخططات أو أبنية معرفية تشتمل على المعلومات والمعتقدات والمفاهيم والافتراضات والصيغ الأساسية لدى الفرد والتي يكتسبها خلال مراحل النمو، ويسلم بأن الامزجة النفسية والمشاعر السالبة تكون نتاجًا لمعارف محرفة"(سعدي لفته، ٢٠١٥، ٥٨)، وهذه المعارف لا تظهر على السطح إلا بعد حدث صادم يعيد تشكيل البنية المعرفية لدى الفرد؛ فيريه العالم من زاوية أخرى تميط له اللثام عن وجه آخر للحياة لم يُبصره من قبل؛ ونتيجة لذلك لا يرتبط "الأفراد بالعالم الخارجي عن طريق سلوك محدد سابقًا؛ بل يربطون انفسهم بالعالم الخارجي تبعًا لتصدرهم عن أنفسهم وعن مشاكلهم الحالية وموقفهم من الحياة الذي يحدد علاقاتهم وصلاتهم بالعالم الخارجي"(ضمرة، ٢٠٠٨، ٨٤)، ويكون ذلك الارتباط متباين التأثير على وفق الموقف والحادثة التي يوضع فيها الأفراد ويعود ذلك لامتلاكم صيغ معرفية تساعدهم في استبعاد معلومات معينة والاحتفاظ بأخرى(ينظر: أبو اسعد وعربيات، ٢٠٠٩، ٢٢٩)، كما أن عدم وصول الإنسان إلى مبتغاه يهدم ويغير كل ما افترضه مسبقًا.

تُعدّ نظرية هدم الافتراضات(Shattered Assumptions Theory) التي قدّمها عالم النفس الأمريكي رونالد جانوف – بولمان عام ١٩٩٢ من الإسهامات النظرية البارزة في فهم أثر الصدمات النفسية في البناء المعرفي للفرد، وتنطلق هذه النظرية من افتراض أساسي مفاده أن الأفراد يطوّرون عبر تفاعلهم مع العالم بوساطة مجموعة من الافتراضات الجوهرية حول طبيعة العالم وحول ذواتهم، تسهم في إضفاء شعور الأمان والسيطرة والاستقرار النفسي، وتشمل هذه الافتراضات معتقدات أساسية مثل الإيمان بعدالة العالم وأمانه وأنه مجبول على حب الخير، والاعتقاد بأن العالم له معنى وأحداثه ذات مغزى، فضلًا عن تصوّر الفرد لذاته بوصفها ذات قيمة وأهمية(ينظر: عبد الخالق، ٢٠٠٦، ١١٤).

وعندما يتعرّض الفرد لتجربة صادمة فإن هذه المنظومة من الافتراضات الأساسية تتعرّض للانهيار أو الهدم مما يؤدي إلى إعادة تقييم جذرية للمعتقدات السابقة، ففي أعقاب الصدمة قد ينظر الفرد إلى العالم على أنه مكان غير آمن،

وتتزعزع ثقته بالآخرين، كما قد يعيد النظر في صورته الذاتية وفي الأسس التي كان يبني عليها فهمه لذاته وللواقع من حوله، ويترك هذا الانهيار المعرفي أثرًا عميقًا في الصحة النفسية؛ إذ يواجه الفرد تحديًا يتمثل في التكيّف مع التحوّل الحاصل في نظرته إلى الحياة والسعي إلى إعادة بناء معتقداته الأساسية؛ ليسقط الإنسان في فراغ لم يكن يتخيله ويواجه هشاشة روحه المجردة، فينبثق من ذلك رحلة وعي مضنية تبحث عن يقين جديد؛ إذ قصد بالافتراضات في هذا البحث البنى القيمية التي يتعامل معها الخطاب الشعري بوصفها قابلة للانكسار لا المسلمات الثابتة المتواضع عليها.

إن الهدم في الشعر الجاهلي لا يراد به الهدم بقدر ما يراد به الكشف والايضاح، فهو فعل تفكيكي يعري الافتراضات التي كانت من الثوابت لدى ذلك المجتمع، فيتجاوز معناه المادي إلى بعد رمزي مجسدًا وعي الشاعر الجاهلي ومحولًا ذلك الخراب إلى خطاب بلاغي يؤسس لمعنى جديد يولد من تحت حطام الهدم.

الافتراضات الأساسية في العقل الجاهلي:

على وفق نظرية هدم الافتراضات الأساسية لدى جانوف– بولمان يقوم الإحساس بخيرية العالم وأمانه على افتراضات معرفية تتشكّل داخل الإطار الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد، وفي السياق الجاهلي لا يُدرك العالم بوصفه فضاءً إنسانيًا عامًا؛ وإنما يُعاد تعريفه داخل حدود القبيلة التي تمثّل للشاعر الجاهلي عالمه الأخلاقي والوجودي، ومصدر شعوره بالأمان والمعنى، ويجد هذا التصوّر جذوره العميقة في طبيعة البيئة التي عاش فيها العربي الجاهلي؛ إذ اسهمت الفيافي المقفرة والمفاوز المهلكة بامتدادها الموحش في تكوين البنية الذهنية للشاعر الجاهلي، وقد عاش العربي الجاهلي وسط بيئة قاسية تحيق بها المخاطر من كل حدب وصوب منها مخاطر بيئية– صحراء قاحلة مع ندرة الماء–، ومخاطر بشرية– حروب وغزو–، كما أن هذه القسوة كونت لديه مجموعة من الافتراضات الاساسية التي منحته الثبات والأمان لتكون ملاذه الوحيد في وجه العدم، فكانت القبيلة توازي الأمان والهوية لديه وكانت الدرع الحامي والملاذ الذي يُعصم فيه العرض والدم كما تمنحه الاسم والذكر والمكانة، فينذر الشاعر نفسه لحراستها ومدحها والاعلاء من شأنها فلم تكن رابطة اجتماعيه فحسب؛ وإنما رمزٌ وجودي يوازي الأمن الشخصي والكينونة المعرفية معًا، إذ إن عدم إشباع حاجة الأفراد إلى العلاقات مع المحيطين وإلى التأييد الاجتماعي يمكن أن يولد لديهم الشعور بالوحدة والألم الاجتماعي(ينظر: الخيلاني، ٢٠٠٨، ١٢٣)؛ مما جعلهم يلوذون بالقبيلة للتخلص من ذلك، وما أدل على ذلك من قول عمرو بن كلثوم الذي جسد فيه المنعة والعزة والقوة المتمثلة بقبيلة تغلب، إذ يقول مفتخرًا: (يعقوب، ١٩٩١، ٩٠).

وَنَشرَبُ إِن وَرَدنا الماءَ صَفواً وَيَشرَبُ غَيرُنا كَدَراً وَطينا

... ...

لَنا الدُنيا وَمَن أَضحى عَلَيها وَنَبطِشُ حينَ نَبطِشُ قادِرينا

كما يمكن عدّ منظومة الأخلاق والكرم والفروسية إحدى الافتراضات الاساسية في نظرية جانوف–بولمان؛ إذ إن الإحساس بخيرية العالم على افتراض معرفي يرى أن النظام الإنساني في جوهره مجبول على القيم والعدل، وقد أسهمت هذه القيم في ترسيخ الشعور بأمان العالم من خلال ضبط العنف، وصون المقدّس، وتقييد القوة بمعايير أخلاقية، وبهذا المعنى تعبّر هذه المنظومة عن إيمان ضمني بأن العالم على الرغم من اضطرابه قابل للانتظام الأخلاقي وهو ما ينسجم مع افتراض جانوف–بولمان بخيرية العالم بوصفه أساسًا نفسيًا للمعنى والاستقرار؛ وتبعًا لذلك أصبحت قيم الاخلاق والكرم والفروسية من الافتراضات الثابتة التي لا تتزعزع لديهم؛ إذ كانت معيارًا للتفاضل والبقاء وتعامل معها الفرد الجاهلي على أنها حقائق قائمة، وما حاتم الطائي الا ترجمة لذلك؛ لأنَّه تحول في المخيلة العربية من كونه مجرد شاعر إلى رمز للكرم

الذي خلده شعريًا واجتماعيًا، فحين يقال: "اجود من حاتم"(العسكري، د.ت، ١: ٣٣٦) صار كرمه معيارًا للتفاضل بين الناس؛ ليصبح الحديث عن كرمه مقياسًا للقيمة والمكانة في الوجدان القبلي والجماهيري الجاهلي حتى يومنا هذا، وليكون أنموذجًا للكرم المطلق، فهو القائل: (الطائي، ١٩٩٤، ٣٧)

وَإِنّــي لَأَقـري الضَـيفَ قَبـلَ سُـؤالِهِ وَأَطعَـنَ قِـدماً وَالأَسِـنَّةُ تَرعُـــــــفُ

وقوله: (الطائي، ١٩٩٤، ١٤٣)

إِذا مــا صَــنَعتِ الــزاد فَالتَمِســي لَــهُ أَكــيلاً فَــإِنّي لَســتُ آكِلَــهُ وَحــدي

أَخــاً طارِقــاً أَو جــارَ بَيــتٍ فَإِنَّنــي أَخــافُ مَــذَمّاتِ الأَحاديــثِ مــن بعــدي

وكيــفَ يُســيغُ المــرءُ زادًا وجــارهُ خفيـفُ المعَـى بـادي الخَصاصـةِ والجهـدِ

كما تؤكد نظرية جانوف–بولمان أن افتراض إيجابية الذات لا يتشكّل بمعزل عن الإطار الاجتماعي، وإنما يُدعَّم عن طريق أدوار ومواقع تمنح الفرد الإحساس بالقيمة والجدارة وفي المجتمع الجاهلي, وقد أدّت الزعامة والملك وظيفة ترسيخ هذا الافتراض؛ إذ شكّلا أعلى تجليات الاعتراف الاجتماعي بالذات، وأضحيا وسيلتين لإثبات التفوق والكرامة والاستحقاق داخل البنية القبلية فالزعامة والملك كانت تساوي الهيبة والاستقرار والسيطرة، فهي ثابتة ضاربة بجذورها في الأرض ممثلة السلطة الرمزية التي تجمع بين السخاء والرعاية والحماية؛ مما جعل الحصول عليها يتطلب معايير صارمة من الكرم والجود وحماية الجار وغيرها، لذا رفعها الشاعر إلى مرتبة الثابت وجعل منها مرآة للهوية ورمزا للبقاء، ومن هنا جاء شعر مُعوَّد الحُكماء شاهدا على ذلك، ففي هذا السياق يقول: (الضبي، د.ت، ٣٥٤/١)

إِنّــي اِمـرُؤٌ مِـن عُصـبَةٍ مَشـهورَةٍ حُشُــدٍ لَهُــم مَجــدٌ أَشَــمُّ تَليــــدُ

أَلَفَـوا أَبـاهُم سَـيِّداً وَأَعانَهُــــم كَــــرَمٌ وَأَعمــــامٌ لَهُــــم وَجُــــــدودُ

إِذ كُــلّ حَــيٍّ نابِــتٌ بِأَرومَــــــةٍ نَبــــتَ العِضــــاهِ فَماجِــــدٌ وَكَســــيدُ

نُعطــي العَشــيرَةَ حَقَّهــا وَحَقيقَهــا فيهــــا وَنَغفِــــرُ ذَنبَهــــا وَنَســــــودُ

وَإِذا تُحَمِّلُنــا العَشــيرَةُ ثِقلَهــــــا قمنــــا بِــــهِ وَإِذا تَعــــودُ نَعــــــودُ

وَإِذا نُوافِــقُ جُــرأَةً أَو نَجــــــدَةً كُنّــا سُــمَيَّ بِهــا العَــدُوَّ نَكيــــدُ

بَــل لا نَقــولُ إِذا تَبَــوَّأَ جيــــرَةٌ إِنَّ المَحَلَّــــةَ شِــــعبُها مُكــــــدودُ

ويبدو جليًا أن السيد لا بد "أن يكون شريف الأصل والأرومة، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة، وهي الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة، ولا بد له أن يبذل المال والنفس في جنايات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريمًا مضيافًا إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار، وكان من أهم ما يقوم به السيد إصلاح ذات البين في القبيلة ولَمّ شعثها مستعينًا في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها، ودائمًا لا بد له من استشارتهم؛ بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفرد القبيلة"(ضيف، د.ت،١: ٦١).

وانصت ايضًا إلى عروة بن الورد وهو يوطد لهذا المعنى بقوله: (نعناع، ١٩٩٥، ٧٤).

لِكُـــلِّ أُنـــاسٍ سَـــيِّدٌ يَعرِفونَـــهُ وَسَـــيِّدُنا حَتّـــى المَمـــاتِ رَبيـــعُ

استنادًا إلى نظرية هدم الافتراضات الأساسية لا يقتصر الإحساس بخيرية العالم وأمانه على الأشخاص والبنى الاجتماعية؛ وإنما يمتدّ إلى الأمكنة المرتبطة بالذاكرة والهوية وتُمثّل الديار –في الوعي الجاهلي– بما تحمله من ذكريات وانتماء عنصرًا أساسيًا في تثبيت افتراض أمان العالم واستمراريته؛ إذ تغدو المكان الذي شهد تشكّل الذات والجماعة، ويعبّر التعلّق بالديار عن إيمان ضمني بثبات العالم وإمكان استعادته عبر الذاكرة، وهو ما يفسّر حضور الوقوف على الأطلال بوصفه محاولة رمزية لمقاومة فقدان المعنى في عالم متحوّل وقاسٍ، ويكفينا شاهدًا على ذلك قول امرئ القيس الذي جسد فيه الحنين الى الماضي وتشبثه بما انهار من افتراضات الثبات والدوام:(المصطاوي، ٢٠٠٤ ، ١٥٩)

قِفـا نَبـكِ مِـن ذِكـرى حَبيـبٍ وعرفـانِ وَرَســمٍ عَفَــت آياتُــهُ مُنــذُ أَزمــانِ

إن هذه الافتراضات كانت من المسلمات والثوابت المتجذرة لديهم وكأنها حجارة صلدة لا تتزحزح، ليُباغت بأنها نهر يسري في صخور الزمن، يتعرج وينعطف تبعًا للظروف والزمن معيدًا تشكل مفاهيم مغايره لما ظنه مستقرًا وراسخاً في وعيه الفكري؛ إذ إن الشخص الذي يصاب بالصدمة يعاني من خلل في بعض الافكار، فضلًا عن مشاعر مغايرة مرتبطة بالحدث الصادم كالشعور بالخوف والرعب وغيرها(ينظر: موسى، ٢٠١٥، ١٣)، وهنا تتجلى تجربتا امرئ القيس والمهلهل بوضوح فالمهلهل بن ربيعة أبو ليلى، كان اسمه عديّا، "وإنما سُمّي مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه"(المرزباني، ١٩٦٥، ٨٩/١), عاش شاعرنا صدمة مقتل أخيه كليب، بعد نشوب حرب بين قبيلتي بكر وتغلب بسبب رمي كليب ضرع ناقة البسوس، خالة جساس، وهذا الأمر حمل جساسًا على قتل كليب، فاستعرت الحرب بين قبيلة تغلب وقبيلة جساس بكر(ينظر: الجاحظ، ٢٠٠٣، ٣٦١/١)، مما أدى إلى ضعف وانكسار قبيلته التي كانت تمثل حصن الأَمان لديه بعد دخولها بحرب شعواء طويلة، فأصبحت مكانًا للخوف والموت بعد أن كانت درعًا حامًا للوجود؛ لتتهدم بذلك فرضية حمى القبيلة، ويترك هذا التحول أثرًا عميقًا في نفسيته وشعره.

اما"حندج الكندي" الذي اشتهر بلقب امرئ القيس ولد في نجد بقرية مرات عاصمة مملكة أبيه بجبل عاقل (ديار بني سعد)، ونشأ مترفا في كنف أبيه حجر بن الحارث، الذي كان ملكا على بني أسد وغطفان، بينما كانت أمه فاطمة بنت ربيعة التغلبية أخت كليب ملك التغلبيين والشاعر المهلهل، حيث ورث امرؤ القيس البراعة الشعرية من خاله(ينظر: الزركلي، ٢٠٠٢، ١١/٢).

لقد جرت العادة على افتراض أن العالم خير والناس متفائلون جدًا فيما يخص مستقبلهم، إلا أن الرياح قد تُسير السفن بما لا تشتهي فتهدم تلك العادة مكونة بذلك تفكك فجائي وحاد للعالم الداخلي للفرد مبعثرة إياه، مكسرة الافتراضات الأساسية لديه لتتحول تلك النظرة الإيجابية إلى نظرة سلبية(ينظر: عبد الخالق, ٢٠٠٦، ١١٩)، وهذا ما حدث مع شاعرنا؛ إذ لم تدم حياة اللهو التي عاشها امرؤ الذي لم يرث من أبيه وخاله كليب فضائل وشمائل الملوك، فاستهواه شعر الغزل الصريح والتشبيب بالنساء ومخالطة الصعاليك؛ مما أدى إلى هدم تلك الافتراضات الأساسية لديه، وتنقل الروايات التاريخية أن رجلا من بني عجل جاء إليه، وهو يلهو مع أقرانه؛ ليخبره أن والده الملك قد قُتل فقال حينها: (المصطاوي، ٢٠٠٤، ١٥٤).

أتـاني وأصـحابي علـى رأس صـيلع حـديثٌ أطـار النـوم عنـي فأفعمـا

فقلـتُ لعجلـيّ بعيـدٍ مآبُـهُ أبن لـي وَبيّن لـي الحـديثَ المجـمجـما

وبمقتل أبيه تبدلت حياة امرئ القيس ونقل عنه قوله "ضيعني صغيرا، وحملني دمه كبيرا.. لا صحو اليوم ولا سُكْرَ غدا، اليوم خمر وغدا أمر"(ابن قتيبة، ٢٠٠٣، ١: ١٠٩)، ثم تتضح القطيعة الحاسمة في مسار حياته والتغير الكبير في منهاجه الفكري حين اعقب اللهو بالقسم "ألا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا حتى يثأر بأبيه"(ابن قتيبة، ٢٠٠٣، ١: ١٠٩)، ويستعيد حكم كندة ففارق الخمر واللهو وأخذ على عاتقه الاخذ بثأر ابيه حتى وفاته، فانقلبت حياته من لهو إلى إباء وانتقام فانهدم عنده افتراض ثبات السلطة ودوام الملك؛ ليتقاطع هذا القول مع قول المهلهل في تجسيد هدم الافتراضات، إذ ينهار عالم اللهو لكليهما ليعلن كل منهما عن تحول داخلي ينعكس على حياتهم الظاهرية.

بعد ما تقدم، نلحظ أن الافتراضات الاساسية في العقلية الجمعية الجاهلية –بشكل عام والشاعر الجاهلي بشكل خاص– تمثلت بركائز أولية شكلت وعيه كالقبيلة والملك والديار والقيم الاجتماعية، وركائز ثانوية كالغدر والخيانة والشيخوخة وغيرها، وهذه الركائز لم تكن بمنأى عن الانكسار والانهيار؛ بل سرعان ما تهوي أمام لحظات صادمة هزت ثوابتها التي اتكأت عليها وافضت الى تحولات عميقة للتجربة الشعرية الجاهلية؛ ليجد الشاعر نفسه امام فراغ وجودي لم يتوقعه، فيفضي به الامر إلى سلك مسار جديد يرسم فيه حياته وافكاره بصياغة مغايرة عن الحياة المعهودة مما يخلع على الشعر تحولات واضحة في مساره، وهو ما انعكس بجلاء على صفحة شعر امرئ القيس والمهلهل.

إن الانشغال بالمظهر الخارجي والتطيب والتأنق في الشخصية الجاهلية يمكن قراءته ضمن إطار نظرية هدم الافتراضات، بوصفه تعبيرًا عن افتراض الذات الإيجابية والجديرة بالتقدير، فالاهتمام بالمظهر الخارجي وشغفه بالتطيب والتأنق والتفاخر بزينة المظهر يعزز الشعور بالقيمة الذاتية ويؤكد مكانة الفرد داخل الجماعة، وبهذا الشكل تتحول سيماء المظهر الخارجي إلى أدوات لتثبيت الهوية وتعزيز الاعتراف الاجتماعي، بما ينسجم مع افتراض أن الذات ذات قيمة وجديرة بالاحترام، إلا أن هذا الشغف يتحول الى ترف منبوذ حين يسقط العربي في بحر الثأر والانتقام؛ لتكون نقطة التحول الاولى في العقل الجاهلي إذ تهدم افتراضات التطيب والتزين امام السيف والدم في افق جديد تصاغ فيه هوية جديدة عن طريق ذلك الثأر، فاستمع للمهلهل وهو يقول: (حرب، د.ت، ٦١)

عَـزَّ وَاللهِ يـا كُلَيـبُ عَلَينـا أَن تَـرى هـامَتي دِهانـاً وَكُحـلا

البيت يظهر بجلاء نقطة تحول علامات الفروسية والنعمة المتمثلة بالترف والزينة إلى عار بعد الفقد؛ ليكون الامتناع عنها شكلا من اشكال الوفاء وايذانا ببدء الثأر، ثم استمع له في نص آخر وهو يصف التحول العنيف الذي حل به بعد مقتل (كليب)؛ إذ ذوى وتداعى البنيان الذي شيده العقل الجاهلي ليبنى على ركامه منظومة تعلي من قيمة الثأر وجعل الانشغال به أسمى من اي متعة وزينة، فتتبع ملامح ذلك التحول في قوله: (حرب، د.ت، ٦٧، ٦٨)

أَلا أَبلِـغ بَنـي بَكـرٍ رِجـالاً مِـن بَنـي ذُهـلِ

قَتَلـتُم سَـيِّدَ النـاسِ وَمَـن لَـيسَ بِـذي مِثـلِ

... ...

وَقَـد كُنـتُ أَخـا لَهـوٍ فَأَصـبَحتُ أَخـا شُـغلِ

بعد أن ظهر انكسار المهلهل بهدم افتراض اللهو والنعيم في النص السابق، نرى التحول يتعمق في نص آخر؛ ليهدم افتراض الدوام والاستقرار، ليفصح عن ولادة وعي جديد بالتحول والزوال؛ إذ لم يعد الهدم مقتصرا على ملذات الحياة، وإنما انتقل إلى جوهر الوجود نفسه في إدراك فناء الحياة وزوالها، فتأمل كيف ينقلب حاله: (حرب، د.ت، ٨٩).

كُلَيبُ لا خَيرَ في الدُنيا وَمَن فيها إِن أَنتَ خَلَّيتَها في مَن يُخَلّيها

وقوله: (حرب، د.ت، ٤٨)

لَمّا نَعى الناعي كُلَيباً أَظلَمَت شَمسُ النَهارِ فَما تُريدُ طُلوعا

يتكرّر في نصوص المهلهل كلّها هذا التحوّل من الضوء إلى العتمة بوصفه مرآةً لروحه المصدوعة الكَليم، فالرجل الذي كان بالأمس يلهو ويغنّي، صار اليوم يجرّ خطاه مثقلاً بالثأر، وتتبدّل ملامح حياته كما تتبدّل ألوان الكون من حوله، كما أنّ كل صورة يقدّمها — من انكسار النفس إلى انطواء الأيام إلى تبدّد لذّات الماضي — لا تأتي إلا امتدادًا لتلك اللحظة الأولى التي امتنع فيها النهار عن الطلوع، فكانت نقطة التحوّل الكبرى التي أعادت تشكيل رؤيته للعالم، وحوّلت شعره إلى سجلّ لتقلّبات نفس تجرّها المأساة جرًّا، وفي معنى يساوق المعنى السابق يقول: (حرب، د.ت، ٣١)

أَهاجَ قَذاءَ عَينِيَ الإِذِّكارُ هُدُوّاً فَالدُموعُ لَها انحِدارُ

وَصارَ اللَيلُ مُشتَمِلاً عَلَينا كَأَنَّ اللَيلَ لَيسَ لَهُ نهارُ

وَبِتُّ أُراقِبُ الجَوزاءَ حَتّى تَقارَبَ مِن أَوائِلِها انحِدارُ

أُصَرِّفُ مُقلَتي في إِثرِ قَومٍ تَبايَنَتِ البِلادُ بِهِم فَغاروا

وَأَبكي وَالنُجومُ مُطَلِّعاتٌ كَأَن لَم تَحوِها عَنّي البِحارُ

في هذه الأبيات يرسم المهلهل لوحة من الأسى تتداخل فيها حركة الكون مع اضطراب النفس حتى لا يعود هناك حدّ فاصل بين ما يجري في داخله وما يتقلّب في السماء من حوله، يبدأ المشهد بدمعة تستفزّها الذكرى، ذكرى تنغرس كقذى في العين، كما ان الليل هنا لا يأتي ستراً وراحة؛ وإنما يطبق على صدره كغيمة فقدت آخر خيوط الضوء، ومع ذلك لا يستسلم، يظلّ ساهراً يلاحق الجوزاء بنظره كمن يفتّش في الفلك عن عزاءٍ ضائع أو علامة تهديه إلى قوم تفرّقوا حتى غاب أثرهم، تتقلّب عيناه في أثر الغائبين كما يتقلّب القلب في الحنين، وتستحيل النجوم — رغم بعدها واتساع المسافة — شهودًا على بكائه، كأنّ البحار لم تكن حاجزًا بينها وبينه، وكأنّ الكون كله قد اقترب منه ليشهد انكساره، إنها لحظة يُختزل فيها التحوّل النفسي العميق: من يقين الفارس إلى قلق المتوحّد، ومن ضجيج الحياة إلى صمت الساهرين، وفي نص آخر يعبر فيه عن التحول يقول: (حرب، د.ت، ٣٣، ٣٤).

أَرى طولَ الحَياةِ وَقَد تَوَلّى كَما قَد يُسلَبُ الشَيءُ المُعارُ

... ...

خُذِ العَهدَ الأَكيدَ عَلَيَّ بِتَركي كُلَّ ما حَوَتِ الدِّيارُ

وَهَجري الغانِياتِ وَشُربَ كَأسٍ وَلُبسي جُبَّةً لا تُستَعارُ

وَلَستُ بِخالِعٍ دِرعي وَسَيفي إِلى أَن يَخلَعَ اللَيلَ النَهارُ

إنْ انعمنا النظر في البيت الأول نجده يعبر عن الانكسار أمام الدهر ووعي الفناء عند الانسان الجاهلي، فالحياة وديعة مؤقتة تسلب في أي لحظة، فهي ليست ملكا دائمًا، فنلحظ تحول وعي الشاعر من طلب اللهو والمتعة إلى إدراك كل شيء قابل للزوال؛ ليكون بذلك تحولا فلسفيا أمام تقلبات الدهر، ثم يردف ذلك بوعي مثقل بالدماء والثأر بعد أن كان أكبر همه اللهو والاستمتاع بالخمر والنساء، ومعززًا ذلك بصورة جليّة من الثبات على أخذ الثأر مبدلا الزينة والخمر بالسيف والدروع ليرسم انقلابا وجوديا في قيم الحياة الجاهلية.

وفي نص آخر يعلن المهلهل انهيار عالمه القديم وتحوله الى عالم ملون بالنار والدم؛ ليكون من أدل نصوص الهدم والتحول وأكثرها وضوحا على تحول الوعي الجاهلي، إذ تواصل القصيدة ذلك الخط الذي ارتسمه شاعرنا لهدم الافتراضات الأساسية لديه، فلاحظ كيف غيرته تجربة الفقد: (حرب، د.ت، ٤٦)

مَن مُبلِغٌ بَكراً وَآلَ أَبيهِـــــــــمِ عَنّي مُغَلغَلَةَ الرَدِيّ الأَقعَـــسِ

وَقَصيدَةً شَعواءَ باقٍ نورُهـــــا تَبلى الجِبالُ وَأَثرُها لَم يُطمَـــــسِ

أَكُلَيبُ إِنَّ النارَ بَعدَكَ أُخمِدَت وَنَسيتُ بَعدَكَ طَيِّباتِ المَجلِسِ

النص يقدم أنموذجًا صريحًا للتحول من مجالس البهجة والسرور إلى عالم الثأر والخراب.

بعد أن قدم لنا عدي بن ربيعة صور التحولات الخارجية التي عصفت بمجالسه وعكرت عليه صفو لهوه، ينتقل في أبيات أخرى ليصف ما أصابه من تحول داخلي يطيح بكيان الشاعر كله فاقدًا صورته في عيون أحبته، وسالبًا إياه ذاته فيغدو شخصا غريبًا عن نفسه، فانظر اليه وهو يعبر عتبة التغير: (حرب، د.ت، ٢٤)

إِنَّ فـي الصَـدرِ مِـن كُلَيـبٍ شُـجوناً هاجِسـاتٍ نَكَـأَنَ مِنـهُ الجِراحـــا

أَنكَرَتنـي حَليلَتـي إِذ رَأَتنـــــــي كاسِـفَ اللَـونِ لا أُطيـقُ المُزاحـا

وَلَقَـد كُنـتُ إِذ أُرَجِّـلُ رَأسـي مـا أُبـالي الإِفسـادَ وَالإِصلاحـــا

في هذه الابيات يصرح شاعرنا عن انهيار داخلي لا يقل وجعًا عن ضياع ملك أو فقد مجلس سرور ودعة؛ فبمقتل أخيه خُلخلت أسس ذاته لنقف أمام صورة لانهيار الافتراض الجاهلي الأعظم، افتراض الثبات في الهوية والرجولة والأنس؛ إذ يمحى عالم كامل ليحل محله عالم جديد، عالم تحكمه الدماء ويستحيل فيه الركون إلى المزاح واللهو.

اعتاد الجاهلي أن يستشرف الزمن بوصفة رصيدًا ممتدًا للغد، كما أن الإنسان مجبول بفطرته على ما يعينه على مواجهة صروف الدهر غير أن التجربة الشعرية كثيرًا ما تكشف ضعف وهشاشة هذه الافتراضات والمسلمات لديه، فاذا بالزمن يتحول من مساند الى عبئ والقوة من نصير إلى ند و وهم، ومن هنا تأتي أبيات المهلهل لتبرز تلك الثوابت الراسخة في الوعي الجاهلي وانهدامها، إذ يظهر الشاعر غارقًا في سكر الهم يحاول عبثًا استعادة فروسيته عبر الثأر في مشهد مأساوي من التحول، إذ يقول: (حرب، د.ت، ٢٩)

دَعينـي فَمـا فـي اليَـومَ مَصـحىً لِشـارِبٍ وَلا فـي غَـدٍ مـا أَقـرَبَ اليَـومَ مِـن غَـدِ

دَعيني فَإِنّي في سَمادير سَكـــــــرَةٍ بِهـا جَـلَّ هَمّـي وَاسـتَبانَ تَجَلُّـــدي

فَإِن يَطلُعِ الصُبحُ المُنيرُ فَإِنَّنـــــــي سَـأَغدو الهُوَينـا غَيـرَ وانٍ مُفَـــرَّدِ

وَأَصبحُ بَكراً غارَةً صَيلَمِيَّـــــــــةً يَنـالُ لَظاهـا كُـلَّ شَـيخٍ وَأَمـــــــرَدِ

يبتدئ شاعرنا نصه –من دون مقدمات– بهدم اساسي عند العربي الجاهلي؛ إذ يتلاشى اليقين باستمرارية الزمن ويستحيل الغد امتدادا لليوم، وهو ما يشكّل تحديًا لافتراض أن العالم خير ومجبول على الاستقرار–وفق نظرية هدم الافتراضات الأساسية–، وتفصح لنا الأبيات عن أن اختلال توقع استمرار الزمن يعيد الفرد إلى مواجهة عالم غير مضمون، ويبرز أهمية البنى الاجتماعية والثقافية التي تمنح الإحساس بالأمان والمعنى، فيتحول ذلك الاستمرار إلى حالة من السكون والركود فيغدوا اليوم والغد سواء، مصاحبًا ذلك سقوط رهانه على الغد بانكسار رؤيته المطمئنة للمستقبل المعولّ عليه؛ ليعود في البيت الثاني ويكرر لفظة "دعيني" بأسلوب إيقاعي معبرا بها عن ثقل داخلي وقلق نفسي وكأنه يعلن جهارا هدم أحد الركائز الأساسية في العقل الجاهلي، شاحنا النص بطابع مأساوي يرسخ في ذهن المتلقي، ويحول الخطاب الشعري إلى صورة أنين يصدح ويتردد في سماء الشعر الجاهلي، معربًا في الوقت ذاته عن هدم واضح لافتراضات القوة والثبات للفارس الجاهلي، ثم تراه يشد من أزر نفسه بتمسكه بالفعل ولو بشكل ضعيف وكأنه يريد أن يحول لحظة الانكسار تلك إلى نوع من التعويض والتجلد؛ ليبلغ التحول ذروته في بيته الأخير محاولا استعادة صورة المحارب في الغارات، إلا أن النص يعكس في عمقه مأساوية شديدة؛ إذ إن استعمال هذا الاندفاع أشبه بتعويض عن الصدمة لا استمرار لافتراض قديم، وإن كانت هذه العودة متشحة بفداحة الفقد.

وفي نص مغاير يختصر رحلة الشاعر من افتراض المتعة والخلود وبقاء الرفقة الى مواجهة الفقد المطلق، فتتبدّى لنا في النص القابل أمارات هدم الافتراضات الأساسية عند الشعراء الجاهليين، فاستمع للمهلهل حين يقول: (حرب، د.ت، ٥٨)

طِفلَـةٌ مـا ابنَـةُ المُجَلِّـلِ بَيضـا ... ءُ لَعـوبٌ لَذيـذَةٌ فـي العِنـــــاقِ

فَـأَذهَبي مـا إِلَيـكِ غَيـرُ بَعيـدٍ ... لا يُـؤاتي العِنـاقَ مَـن فـي الوِثـاقِ

يفتتح الشاعر قصيدته بمشهد حسي عاطفي فيه طيف المتعة؛ وفجأة يشيح ذلك الطيف بوجهه ليسلمه إلى صور الفقد والقيود، فيتحول الافتراض من اللذة والحرية الى الموت والقيد والاسر، ثم يكمل قوله: (حرب، د.ت، ٥٨، ٥٩).

ضَـرَبَت نَحرَهـا إِلَـيَّ وَقـــــالَت ... يـا عَـدِيّاً لَقَـد وَقَتـكَ الأَواقـــي

مـا أُرَجّـي فـي العَـيشِ بَعـدَ نَـداما ... يَ أَراهُـم سُـقوا بِكَـأسِ حَـــلاقِ

بَعـدَ عَمـرٍو وَعـامِرٍ وَحيِـــــيٍّ ... وَرَبيـعِ الصُـدوفِ وَابنَـي عَنـاقِ

وَامـرِئِ القِـيسِ مَيِّـتٍ يَـومَ أَودى ... ثُـمَّ خَلّـى عَلَـيَّ ذاتِ العَراقـــي

وَكُلَيـبٍ شُـمِّ الفَـوارِسِ إِذ حُمـ ... ـمَ رَمـاهُ الكُمـاةُ بِالإِتِّفـــــاقِ

إِنَّ تَحـتَ الأَحجـارِ جَـدّاً وَلينـاً ... وَخَصـيماً أَلَـدَّ ذا مِعـــــــلاقِ

ثم يتصاعد النص بذكر وتعداد الاصحاب الذين خطفهم الردى، فينهدم بفقدهم افتراض بقاء الخلان والرفاق والأحبة، ليتهاوى بذلك عمود نفسي واجتماعي في حياة الجاهلي، ودونك قول المهلهل: (حرب، د.ت، ٥٩)

حَيَّـةً فـي الوَجـارِ أَربَـدَ لا تَنــ فَــعُ مِنــهُ السَلـــــيمَ نَفثَـــةُ راقِ

لَسـتُ أَرجـو لَـذَّةَ العَـيشِ مـا أَزَمَــت أَجــلادُ قَــدٍّ بِســـــاقي

جَلَّــوني جِلــدَ حَــوبٍ فَقـــــدَ جَعَلـــوا نَفسـي عِنـــدَ التَراقـــي

وفي آخر أبياته يخط عدي بن ربيعة ملامح صورة موغلة في المأساوية (جلد الحوب على الجسد، النفس عند التراقي) أي البوح عن قناعته بحتمية الموت، ليكون التعبير بوحًا عن سقوط كل دعائم الافتراضات الأساسية: في اللهو والمتعة ووجود القبيلة والذات معًا، فيمضي بنا من ميدان اللهو إلى فضاء الاسر والقيود مكمكمًا أسماء المقربين والفرسان منه، فيفضي بنا في حضرة إنقاض لكل ثابت ويقين: متعة تختفي، وصحبة تفنى، وحياة تسلب عند التراقي.

هكذا كشفت لنا نصوص المهلهل عن تجربة متأرجحة بين هدوء ولهو وفجيعة وثأر، فالعقل الجاهلي لم يكن ساكنًا امام تلك التحولات الكثيرة؛ إنما جسدها بنصوص شعرية تفيض بانتقالات كبرى، ومن ثم يمكن القول: إن هذه النصوص رفعت الستار عن انكسار حضاري جسد تحول الزمن وتقلبه.

تلتقي نصوص المهلهل والملك الضلّيل عند نقطةٍ واحدة؛ فكلٌّ منهما يشهد تهاوي عالم اللهو الذي كان يحيط به؛ ليكشف هذا الانهدام لتلك الافتراضات عن تحوّلٍ داخليّ عميق سرعان ما تنعكس صورته على ملامح حياتهما الظاهرة فيعاد تشكيلها من جديد؛ لنلحظ انهدام أركان الحياة المألوفة لديه والغرق في ظلمات حياة أخرى مختلفة كل الاختلاف عما كانت عليه حياته فيما سبق، وتبعًا لذلك حولت حادثة مقتل حجر حياته من حياة أُنس إلى حياة صراع، إذ يقول: (المصطاوي، ٢٠٠٨، ٩٦)

وَلـوْ شـاءَ كـانَ الغـزْوُ مـن أرض حِميَـر وَلَكِنّــهُ عَمْــداً إلــى الــرّوم أَنْفَــرَا

بَكــى صَــاحِبي لمّــا رأى الــدَّرْبَ دُونــه وأيقــنَ أنــا لاحِقَــانِ بقَيْصَــــرَا

فَقُلــتُ لَــهُ: لا تَبْــكِ عَيْنُــكَ إنّمَــــــا نحــاوِلُ مُلْكــاً أوْ نمــوتُ فَنُعْــذَرَا

وَإنــي زَعِــيمٌ إنْ رَجَعْــتُ مُمَلَّكــــــاً بسَــيْرٍ تَــرَى مِنْــهُ الفُرَانِــقَ أَزْوَرَا

هُدِمت افتراضات اللهو والعبث والمجون واستحالت افتراضات مغايرة لملك يطلب السطوة والسلطان ويرنو إلى أخذ ثأر أبيه وبسط نفوذه في بلاد العرب.

في هذا النص الشعري يتبدّى صوت امرئ القيس في أعلى درجات التمرّد الوجودي ووضوح الرؤية بعد انكسارات الدهر؛ إذ يبدأ الشاعر من مشهد الرحيل القاسي، حين يبكي صاحبه لرؤية الدرب الموحش أمامهما، فينعكس البكاء هنا بوصفه ردّ فعل بشري طبيعي أمام الهلاك، لكن شاعرنا لا ينقاد لدموع الخوف، فهو يَقلِب المشهد رأسًا على عقب، ليحوّل الانكسار المرتقب إلى مشروع بطولة كبرى حين يقول: (نُحاوِلُ مُلكاً أو نموتُ فَنُعذَرَا) فإنه لا يصوغ مجرد شعار؛ وإنما يكشف نقطة انعطاف داخلية تعلن انتقاله من حياة اللهو التي كانت في شبابه إلى وعيٍ جديد ينتصر فيه مقام الشجاعة على مقام اللذة، فالغاية إمّا ملك يُستعاد، وإمّا موت مشرّف يبرّر مسعاه.

إن هذه الثنائية لا تُعبّر عن تهوّر؛ وإنما عن إدراك حادّ لحقيقة المصير، إذ يصبح الشرف هو الحدّ الفاصل بين الوجود والفناء، وفي قوله: (وإني زعيمٌ إن رجعتُ مُملّكًا...) يرتفع الصوت من مقام التحدّي إلى مقام التعاهد مع الذات، إنّه يوقّع وعدًا داخليًا يشي بصلابة التحوّل الذي استقر في أعماقه، فهو لم يعد ذلك الفتى اللاهي الذي يلهو بين الرياض؛ بل

الأمير المطرود الذي يرى في السيف طريقًا وحيدًا لاستعادة عالمه المنهار، فالدرب الذي يبكي أمامه الصاحب هو ذاته الدرب الذي يراه امرؤ القيس بوّابة قدرٍ جديد.

إنَّ هذا النص يكشف — في عمقه — عن شاعر انتهى إلى حقيقة جوهرية مفادها: أن الزمن لا يعيد ما ينهار، وأن الذات لا تُستعاد إلا بالمواجهة؛ ولذلك ينهض امرؤ القيس هنا بصورة رجل يختبر لحظة مصيرية، لحظة يتحوّل فيها الحزن إلى عزيمة، والضياع إلى مشروع ملك، والدموع إلى صلابة وجودية.

وفي نص آخر يمتدّ صوت امرئ القيس ليُكمل ما بدأه في المقطَع السابق؛ فبين سعيه إلى الملك ومراهنته على المجد، وينكشف له في هذا النص خفاء الدهر وغوله، فيتراجع الحلم أمام حقيقة الفناء، وهكذا تتجاوب التجربتان: اندفاعٌ كان يُنشد المُلك، ثم وعيٌ مرير يردّ صاحبه إلى هشاشة الإنسان أمام صروف الزمان، إذ يقول: (المصطاوي، ٢٠٠٨، ٧٨، ٧٩).

أرانـا مُوضـعين لأمـر غَيْـــــــبٍ ونُسْـحَر بالطعـام وبالشـــــــراب

عَصـــــــــــــافـيرٌ وَذبّانٌ وَدودٌ وَأَجـرَأُ مِـن مُجَلَّحَـةِ الذِئـــــــابِ

وَكُـلُّ مَكـــارِمِ الأَخـلاقِ صـــــارَت إِلَيهِ هِمَّتي وَبِـهِ اكتِسابـــــــــي

فَبَعضَ اللومِ عاذِلَتـــي فَإِنّـــــــي سَــتَكفيني التَجــارِبُ وَانتِسابـــي

إِلــى عِـرقِ الثَـرى وَشَـجَت عُروقـي وَهَذا المَوتُ يَسلِبُني شَبابـــــي

وَنَفسـي سَـوفَ يَسـلِبُها وَجرمـــــي فَيُلحِقَنـي وَشـيكًا بِالتُـــــــــرابِ

أَلَـم أَنـضِ المَطِـيَّ بِكُـلِّ خَـــــرقٍ أَمَـقِّ الطـولِ لَمّـاعِ السَّـــــــرابِ

وَأَركَـبُ فـي اللَهـامِ المُجـرِ حَتّـى أَنـالَ مَآكِلَ القُحمِ الرِغـــــــابِ

وَقَـد طَوَّفـتُ فـي الآفـاقِ حَتّـــى رَضـيتُ مِـنَ الغَنيمَـةِ بِالإِيـــــابِ

أَبَعـدَ الحـارِثِ المَلِـكِ ابـنِ عَمـرٍو وَبَعـدَ الخَيـرِ حُجـرٍ ذي القِبـــابِ

أُرَجّـي مِـن صُـروفِ الـدَهرِ لينًـا وَلَـم تَغفَـل عَـنِ الصُـمِّ الهضـابِ

وَأَعلَـمُ أَنَّنـي عَمّـا قَريـــــــب سَأَنشِـبُ فـي شَـبا ظفـرٍ وَنـابِ

كَمـا لاقـى أَبـي حُجـرٌ وَجَـدّي وَلا أَنسـى قَتـيلًا بِالكِـــــــــلابِ

فقد ضاع منه الماضي بكل أحلامه، وهو ينظر أمامه في الأفق البعيد؛ بل القريب، فلا يرى إلا وادي العدم الذي يشد إليه الناس جميعًا رحالهم، فضلًا عن أن قتل أبيه أذكى جذوة فلسفةٍ ضرب شاعرنا صفحًا عنها في ماضيه السعيد الذي كان أقرب إلى الفلسفة الأبيقورية منه إلى فلسفة الحياة والموت ومعنى الحياة والرغبة في البقاء على ظهر البسيطة أو الإلقاء بنفسه في موج المنايا المتلاطم، فكأننا أمام شاعر آخر لا يمت إلى الملك الضليل بسبب.

وفي صورة تضج بهدم اساسي في نصه القابل يمتدّ صوت امرئ القيس من شكواه من غدر الدهر إلى اعترافه المرّ بأنه غريب في أرض لا ملاذ وحِرز له فيها، يطارد مُلكًا يتبدّد بين يديه كما تبدّدت أحلامه الأولى، ويغدو هلاكه بعيدًا عن قومه تتمّة طبيعية لمسارٍ أدرك فيه الشاعر أنّ المصائر تجرّ الإنسان جَرًّا، وأنه — مهما جالد — يُرَدُّ إلى قدره وحيدًا لا يُسنده نسبٌ ولا دار، فاستمع له حين يقول: (المصطاوي، ٢٠٠٨، ٨٩)

ألا أبْلِـغْ بَنـي حُجْـرِ بـنِ عَمْـرٍ ... وَأبْلِـغْ ذلِـكَ الحَـيَّ الحَدِيـدَا

بِـأنّي قَـدْ هَلَكْـتُ بِـأرْضِ قَـوْمٍ ... سَـحِيقاً مِـن دِيَـاركُمُ بَعِيـدا

ولَـوْ أنّـي هَلَكْـتُ بِـأرْضِ قَـوْمي ... لَقُلْـتُ المَـوْت حَـقٌّ، لا خُلُـودا

أُعـالِجُ مُلْـكَ قَيْصَـرَ كُـلَّ يَـوْمٍ ... وأجْـدِرْ بِالمَنِيّـةِ أنْ تَقُـودا

بِـأرْضِ الشّـأمِ لا نسَـبٌ قَرِيـبٌ ... ولا شـافٍ فَيُسْـنِدَ أوْ يَعُـودا

ولَـوْ وافَقْـتُهُنَّ علـى أُسَـيْسٍ ... وحاقَـةَ، إذْ ورَدْنَ بِنـا وُرُودا

علـى قُلُـصٍ تظَـلُّ مقلَّـداتٍ ... أزِمَّـتَهُنَّ مـا يَعْـدِفْنَ عُـودا

تجلت مظاهر هدم الافتراضات الاساسية في نص امرئ القيس المتقدم بوضوح؛ إذ عكس النص انتقال الشاعر من اليقين الى الشك والقلق، ففي البيتين الأول والثاني يبرز النوع الأول من الهدم متمثلا بهدم الافتراضات المتعلقة بالأمان والمكانة الاجتماعية، فالشاعر يجد نفسه غريبًا بلا سند أو حماية في غير أرضه؛ لتظهر الصدمة والفقد بوصفه عنصر دفع للتحول اللاحق في وعيه الشعري.

اما البيتان الثالث والرابع جسدا نمطا آخر من أنماط هدم الافتراضات الأساسية، تتمثّل بهدم افتراض دوام الملك وغياب سلطة ومرجعية القبيلة بعد أن كان متيقنا بثباتها وعدم زوالها، حتى يدرك أن ذلك زائلٌ وليس سرمديًا؛ ليفيق على حقيقة غياب الامان الاجتماعي وانكسار جناح السلطة المنيع الذي كان يحمله ويعلي محله.

اما النمط الثالث فبرز في البيتين الثالث والرابع؛ إذ ينهار لديه افتراض ثبات الروابط القبلية القديمة، وعلى الرغم من محاولاته التزامه بالتحالفات القديمة، يأبى الدهر الخؤون ذلك فيميط اللثام عن تقلبه جاعلا عودة الامور لنصابها ضربا من الخيال وشيئا محالًا؛ ليكون النص الشعري مثالا مكتمل الاجزاء لنظرية جانوف بولمان.

كما يعكس النص رحلة امرئ القيس بين الهدم والتحول؛ إذ تتهاوى أمام ناظريه ركائز الأمان والمكانة والروابط الاجتماعية مع غلبة الموت وسطوته على كل الافتراضات الثابتة، محدثتا بذلك شرخا كبيرا في وعي الشاعر، فينشأ عن ذلك تحولا شعوريا بان يسلك النص طريقًا مغايرا من مسار الفخر والاستقرار إلى مسار مأساوي يتشح بتقلبات الدهر وصروفه، فينتج عن ذلك ما يسمى بضغوط ما بعد الصدمة التي تمس جوانب حياته الشخصية والاجتماعية والاسرية جميعًا؛ مما يشكل لدية بنية جديدة تحكم علاقته مع نفسه والعالم الخارجي(ينظر: نور الايمان، ٢٠١٨، ٥٤)، ومن نصوصه البليغة التي تفيض بالمرارة والصدمة من سقوط الملك وضياع السؤدد، قوله: (المصطاوي، ٢٠٠٨، ١٦٢)

ألا يـا عَـينُ بَكِّـي لـي شَنِينَـا ... وَبَكِّـي لـي الملـوكَ الـذَّاهِبِينَا

مُلُوكًـا مِـن بَنِـي حُجْـرِ بـنِ عَمْـرٍو ... يُسَـاقُونَ العَشِـيَّةَ يُقْتَلُونَـا

فلـو فـي يَـومِ مَعْرَكَـةٍ أُصِيبُـوا ... ولكـنْ فـي دِيـارِ بنـي مَرِينَـا

فلـمْ تُغْسَـلْ جَمَـاجِمُهُمْ بِغِسْـلٍ ... ولكـنْ بالـدِّمَاءِ مُرَمَّلِينَـا

تَظَـلُّ الطَّيـرُ عَاكِفَـةً عليهـمْ ... وَتَنْتَـزِعُ الحَوَاجِـبَ والعُيُونَـا

إن هذا النص رثاء لا يبكي الملوك فقط؛ وإنما يبكي انهيار العروش وتهاوي الافتراضات عن خلود الملك وعزة القبيلة ومنعتها، فالملوك في النص السابق يساقون إلى القتل لا في ساحات المجد كما هو مألوف؛ مما يزيد المشهد انكسارا ويفضح زيف مقولة خلود الملك، ومن جانب آخر تتهاوى افتراضات كرامة الميت فجماجمهم مرملة بالدماء تنهش الطيور أجسادهم؛ ليصدم الشاعر بتحول مفهوم العظمة إلى ذل وخنوع.

بعد أن وقفنا عند هدم الافتراضات الأساسية من فقدان الديار والسلطة والروابط القبلية يستوقفنا نص آخر للشاعر ذاته، نص يتحول فيه الانكسار من مجرد فقدان السلطة والمكانة الاجتماعية إلى تجربة شخصية تضرب بعمق في نفس الشاعر، تجربة تجسد أعمق جروح الصدمات والمآسي التي تمر على شخص ما في هذه الحياة وكأنها القشة القاصمة لظهره، إذ تحول وعيه من الصحة والدعة والطمأنينة ورفاهة العيش الى حالة هدم وبؤس مصاحبا ذلك إدراكه لمحدودية السيطرة على الحياة، فاستمع له وهو يجسد شعور المأساة وقد خيم عليه الانكسار الممزوج باللوعة: (المصطاوي، ٢٠٠٨، ١١٢)

وَبُـدّلْتُ قَرْحَـاً دامِيـاً بَعـدَ صِحّـــــةٍ فَيا لـكِ من نُعمَى تحَوّلنَ أبْؤســـــــا

لَقـد طَمَـحَ الطَّمّـاحُ مـن بُعـد أرْضِـهِ لِيُلْبِسَني مِنْ دَائِهِ مَا تَلَبّسَـــــــــــا

ألا إنّ بَعـدَ العُـدْمِ للمَـرْءِ قِنْـــــوَةً وَبعـدَ المَشـيبِ طـولَ عُمـرٍ ومَلَبَسَـا

فالنصوص الشعرية السابقة جسدت حالة الشاعر المتحولة من نعمة الصحة وعافية الجسد إلى المرض والقروح القاتلة، كما تؤكد مفهومه السابق في تعذر فرض السيطرة على هذه الحياة المتقلبة التي لا يدوم لها حال؛ إذ تريك السعادة والوجه المشرق تارة وتكشر عن أنيابها تارة اخرى فتذيقك ألم فقد حبيب أو سلطان أو انكسار بعد عز ومنعة؛ لتهدم بذلك افتراضًا تقويميًا شاملًا للذات بتحولها من ذات جيدة ومقدرة وذي كفاءة إلى نظرة مغايرة تمامًا.

الخاتمة:

- تكشف دراسة نصوص شعر المهلهل وامرئ القيس عن تجسيد واضح لمبادئ نظرية هدم الافتراضات الاساسية لدى جانوف – بولمان، إذ يظهر العالم في الشعر الجاهلي خيرًا عن طريق قيم القبيلة والأخلاق والكرم والفروسية، وقيمة الذات وجدارتها بالتقدير في الممارسات الاجتماعية والمظاهر الشخصية مثل التطيب والتأنق.
- كشفت النصوص الشعرية لكلا الشاعرين عن مدى هشاشة الافتراضات الجاهلية امام الدهر وتقلباته، فانهارت؛ لتفسح المجال لوعي جديد قائم على المأساة والفقد.
- تحوّل(عدي بن ربيعة، امرؤ القيس) من أخوي لهو إلى اسيري ثأر جعل شعرهم مرآة لهدم خارجي وداخلي في وقتٍ معا.
- إن الشعر الجاهلي لم يكن مجرد امتداد للهوايات والمتعة؛ بل نجده هنا أداة للتعبير عن الانكسارات والتحولات النفسية والاجتماعية.
- تعدد مجالات الهدم لدى الشاعرين؛ إذ لم تقتصر على نوع واحد بل تفاوتت بين الهدم الفردي والنفسي والاجتماعي والسياسي.
- تحول الخطاب الشعري من الغزل واللهو إلى القلق والبحث عن المجد، ومن الفخر بالقوة إلى حزن متماشيًا بذلك مع ما هدم من افتراضات اساسية.
- إن التحول في وعي الشاعرين رافقه تحولًا في اللغة الشعرية من الغنائية إلى البعد المأساوي التأملي.

- الصدمة لم تكن مجرد حدث عابر؛ بل كانت قوة مزلزلة أعادت صياغة النصوص الشعرية، وحولت الشعر من فضاء الغزل والفخر والمديح إلى فضاء الانكسار والهدم والبحث عن جدوى الوجود.
- برز الهدم والتحول وازداد حدة مع (الانكسار أمام الموت، الغدر، الصدمة من تقلبات الدهر، انهيار السلطة).
- إن أهم الثوابت المهدومة قد تجلّت في اللهو والنعيم، المجالس والرفقة، القوة السياسية والملك، الولاء القبلي.
- وعن طريق هاتين التجربتين نرى بعين اليقين أن الشعر الجاهلي لم يكن صورة جامدة للتقاليد الشعرية؛ وإنما هو نص متحرك يهدم الثوابت والافتراضات؛ ليعيد بناء وعي جديد، يصور الانسان في ضعفه وقوته في الوقت نفسه.

المصادر والمراجع:

- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة_ مصر، ٢٠٠٣.
- أبو أسعد وعربيات، أحمد عبد اللطيف، أحمد عبد الحليم، نظريات الارشاد النفسي والتربوي، دار المسيرة، عمان_ الأردن، ٢٠٠٩.
- الجاحظ، عمرو بن بحر الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، ط٢، بيروت_ لبنان، ٢٠٠٣.
- حرب، طلال ديوان عدي بن ربيعة (المهلهل)، الدار العالمية، (د.ت).
- الخيلاني، كمال محمد سرحان، الألم الاجتماعي وعلاقته بالذاكرة الصدمية والاخفاقات المعرفية، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد– كلية الآداب، ٢٠٠٨م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت_ لبنان, ٢٠٠٢.
- الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٦, القاهرة_ مصر، (د.ت).
- ضمرة، جلال كايد، الاتجاهات النظرية في الإرشاد، دار صفار للنشر والتوزيع، ط١، إربد_ الأردن، ٢٠٠٨.
- ضيف، أحمد شوقي عبد السلام، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة_ مصر, (د.ت).
- الطائي، ابو صالح بن مبارك، ديوان حاتم الطائي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٤.
- عبد الخالق، احمد محمد، الصدمة النفسية، دار اقرأ الدولية للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة_ مصر، ٢٠٠٦م.
- العسكري، أبو هلال الحسن، جمهرة الأمثال، دار الفكر, بيروت_ لبنان، (د.ت).
- لفته، محمود سعدي، تأثير أسلوبين إرشاديين (العلاج العقلاني والعلاج المعرفي) في تعديل المعتقدات اللاعقلانية لمن يعانون ضغوط ما بعد الصدمة، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية– كلية التربية، قسم الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي، ٢٠١٥.
- المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ت: علي محمد البجوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥.
- المصطاوي، عبد الرحمن, ديوان امرئ القيس، دار المعرفة، ط٢، بيروت_ لبنان، ٢٠٠٤.
- موسى، صابرين ظريف، الخبرات الصادمة عبر الأجيال الفلسطينية وعلاقتها بالتوافق النفسي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية التربية، غزة_ فلسطين، ٢٠١٥.
- نعناع، محمد فؤاد، ديوان عروة بن الورد، ابن السكيت، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة_ مصر، ١٩٩٥.
- نور الإيمان، يعقوب أنفال، مقاربة سيكوديناميه للألم المزمن، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ورقلة_ الجزائر، ٢٠١٨.
- يعقوب، اميل بديع، ديوان عمرو بن كلثوم، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت_ لبنان، ١٩٩١.

Sources and references:

- Abd al-Khaliq, Ahmad Muhammad, Al-Sadma al-Nafsiyya, Dar Iqra' al-Dawliya for Publishing and Distribution, 2nd ed., Cairo, Egypt, 2006.
- Abu As'ad and Arabiyat, Ahmad Abd al-Latif and Ahmad Abd al-Halim, Theories of Psychological and Educational Guidance, Dar al-Masirah, Amman, 2009.
- Al-Askari, Abu Hilal Al-Hassan, Jamharat Al-Amthal, Dar Al-Fikr – Beirut, Lebanon, n.d.
- Al-Dabbi, Al-Mufaddal ibn Muhammad ibn Ya'la ibn Salim, Al-Mufaddaliyyat, edited and annotated by Ahmad Muhammad Shakir and Abd al-Salam Muhammad Harun, 6th ed., Dar al-Ma'arif, Cairo, Egypt, n.d.
- Al-Jahiz, Amr ibn Bahr, Literary Epistles, Dar wa Maktabat al-Hilal, 2nd ed., Beirut, Lebanon, 2003.

- Al-Khailani, Kamal Muhammad Sarhan, Social Pain and its Relationship to Traumatic Memory and Cognitive Failures, PhD dissertation, University of Baghdad - College of Arts, 2008.
- Al-Marzubani, Abu Ubaid Allah ibn Muhammad ibn Imran ibn Musa, ed. Ali Muhammad Al-Bajawi, Al-Muwashah fi Ma'akhidh Al-Ulama' 'ala Al-Shu'ara', Dar Nahdat Misr, 1965.
- Al-Mustawi, Abdul Rahman, Diwan Imru' Al-Qais, Dar Al-Ma'rifah, 2nd ed., Beirut, Lebanon, 2004.
- Al-Ta'i, Abu Salih ibn Mubarak, Diwan Hatim al-Ta'i, Dar al-Kitab al-'Arabi, 1st ed., 1994.
- Al-Zarkali, Khair al-Din ibn Mahmud ibn Muhammad ibn Ali ibn Faris, Al-A'lam, Dar al-'Ilm lil-Malayin, 5th ed., 2002.
- Damra, Jalal Kayed, Al-Ittijahat al-Nazariyya fi al-Irshad, Dar Safar for Publishing and Distribution, 1st ed., Irbid, Jordan, 2008.
- Dayf, Ahmad Shawqi Abd al-Salam, Tarikh al-Adab al-'Arabi al-'Asr al-Jahili, Dar al-Ma'arif, n.d.
- Harb, Talal, Diwan of Adi ibn Rabi'ah (al-Muhalhil), Al-Dar al-Alamiyyah, (n.d.(.
- Ibn Qutaybah, Abu Muhammad Abdullah ibn Muslim, Poetry and Poets, Dar al-Hadith, Cairo, 2003.
- Lafteh, Mahmoud Saadi, The Impact of Two Counseling Approaches (Rational Therapy and Cognitive Therapy) on Modifying Irrational Beliefs in Those Suffering from Post-Traumatic Stress, PhD Dissertation, Al-Mustansiriya University - College of Education, Department of Psychological Counseling and Educational Guidance, 2015.
- Musa, Sabreen Zarif, Traumatic Experiences Across Palestinian Generations and Their Relationship to Psychological Adjustment, Master's Thesis, Islamic University, College of Education, Gaza - Palestine, 2015.
- Na'na', Muhammad Fuad, Diwan 'Urwah ibn Al-Ward, Ibn Al-Sikkit, Al-Khanji Library, 1st ed., Cairo - Egypt, 1995.
- Nour Al-Iman, Ya'qub Anfal, A Psychodynamic Approach to Chronic Pain, Master's Thesis, Kasdi Merbah University, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ouargla, Algeria, 2018.
- Ya'qub, Emile Badi', Diwan of Amr ibn Kulthum, Dar al-Kitab al-Arabi, 1st ed., Beirut, Lebanon, 1991.